

سورة فصلت، وتسمى السجدة

مكية، وآياتها ٥٤، وقيل: ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَدَّثَنَا تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَاتَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾

إن جعلت ﴿حَدَّثَنَا﴾ اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ. و﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبره. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف و﴿كَتَبْتُ﴾ بدل من تنزيل. أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف، وجوز الزجاج أن يكون ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ، و﴿كَتَبْتُ﴾ خبره. ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ. ﴿فَصَّلْتُ ءَايَاتَهُمْ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعده ووعيد، وغير ذلك، وقرئ: «فصلت»، أي: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولك: فصل من البلد. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت. وقيل: هو نصب على الحال، أي: فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت: بما يتعلق قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أي: تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب؛ لثلا يفرق بين الصلوات والصفات. وقرئ: «بشير ونذير» صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون ولا يطيعون، ومن قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

﴿وَقَالُوا فُلُونَا فِي أَكْنَانِ رَبَّنَا فَلِدْعَانَا إِيَّاهُ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقُرْءَانِنَا وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمْلُونَ ﴿٥﴾﴾

والأكنة: جمع كنان. وهو الغطاء، و«الوقر» بالفتح: الثقل. وقرئ: بالكسر. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف ١٥٦/٢ ب وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه، ولتباعده المذهبيين والدينين كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل في إبطال أمرنا، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ: «إننا عاملون» فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجاباً حاصلًا وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ^(١) فيها. فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر؛ ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب)؟ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها، ولو لا ذكر (من) فيها لكان المعنى: على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط» قال أحمد: ولا ينفك المعنى بدخول (من) عما كان عليه قيل، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية؛ لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى، فيكون التقدير إذا: (ومن بيننا وبينك حجاب)، وهذا يخل بمعنى (بين) إخلالاً بيننا، فإنها تأتي تكرار العامل معها، حتى لو قال القائل: جلست بين زيد، وجلست بين عمرو: لم يكن مستقيماً؛ لأن تكرار العامل بصيرها داخلة على مفرد فقط، ويقطعه عن قرينه المتقدم. ومن شأنها الدخول على متعدد؛ لأن في ضمن معناها التوسط. وزاد الزمخشري على هذا فجعل (بين) الثانية غير الأولى؛ لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته، وليس الأمر كما ظنه، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمّر محفوظ، فوجب تكرار حافظه وهو بين، والدليل على هذا: أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو؛ وبين أن تقول: جلست بين زيد وبين عمرو. وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع المضمّر وجوباً لما بيناه؛ فإذا وضع ذلك فالظاهر - والله أعلم - أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) وذلك للإشعار بأن الجهة المتوسطة مثلاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير، ووجود من قريب من عدمها، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه: تبين ضعفه، والله الموفق، وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في دور الكتاب العزيز، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحد منها كاف في فنه، فأولها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصمم. وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلا أسبلته، ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطعماً ولا صريحاً إلا استلبته، فنسال الله كفايته.

نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى، وترى المطابع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة^(١) إلا في المعاني.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾

فإن قلت: من أين كان قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قُلُوبَنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؟^(٢) قلت: من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم فصحت - بالوحي إليّ وأنا بشر - نبوتي، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾. وقرئ: «قال إما أنا بشر». فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طوبته. ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم مِّمَّا كَسَبَتْ اللَّهُ وَتَنِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يشبثون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة^(٣) من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم، وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحرب، وجوهدوا^(٤). وفيه بعث للمؤمنين على أداء

(١) قوله: «والملاحظة» لعله: والملاحظة. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: كيف كان هذا جواباً لما تقدمه» قال أحمد: وأجاب بما تلخصه فنقول: لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الإباء، بدأهم بإقامة الحجة على وجوب القبول منه، فإنه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت. وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل.

(٣) قوله: «إلا بلمظة من الدنيا» في الصحاح: «المظ» إذا تبع بلسانه بقية الطعام في فمه، اهـ. فلظمة: بمعنى ملموظ، كمضغة بمعنى ممضوغ. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: لم خص الزكاة؟ وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فبذله مصداق لاستقامته ونصوح طوبته، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا، وأهل

الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة. وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج، ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ. وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أذكيا، وهو الإيمان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)

الممنون: المقطوع. وقيل: لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل. فأما الأجر فحق أداءه. وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر، كأصح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنسَلِوْنَ إِلَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ رُحًى دُخَانًا فَذُحَّاكُ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْبِيًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢)

﴿أَيُّكُمْ﴾ بهمزتين^(١): الثانية بين بين. و«ءائتكم» بألف بين همزتين ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين. وهو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالات ثوابت. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾؟ وهل اقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَيْخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْنَا فِيهَا كَالْمَسَامِيرِ: لمنعت من الميدان أيضاً، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض؛ لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها، حاضرة محصليها؛ وليبصر أن الأرض والجبال أقال على أقال، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه، وهو ممسكها عزّ وعلا بقدرته. ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها وأنماه. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعاشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود. وقسم فيها أقواتها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ فذللك^(٢) لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا

= الردة ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهداوا. قال أحمد: كلام حسن بعد تبديل قوله: وما خدع المؤلف؛ فإن استعماله الخداع غير لائق؛ لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الإيمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(١) قوله: «أئتكم بهمزتين» لعله: قرئ بهمزتين... إلخ. (ع).

(٢) أي كلام منقطع. روح المعاني (١٠١/٢٤).

نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تنمة أربعة أيام، يريد بالتنمة اليومين. وقرئ: «سواء» بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أي: استواء: والرفع على: هي سواء. فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أي: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. ١٥٧/٢^(١) فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول: في يومين وأن تقول: في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين - وقد يطلق اليومان على أكثرهما - لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ من قولك: استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحوه قولهم: استقام إليه وامتد إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك. قيل: كان عرشه قبل

(١) قال محمود: «إن قوله (في أربعة أيام) فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تنمة أربعة أيام، يريد بالتنمة: اليومين، ثم قال: فإن قلت: بم تعلق قوله: (للسائلين)؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أي: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد: لم يبين امتناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله: (في أربعة أيام فذلكة)، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلو جعل قوله: (للسائلين) متعلقاً بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج؛ فإن الأربعة على قوله من تنمة الأول، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التنمة تعلق الظرف بالمظروف؛ لئلا يمتد ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج - والله أعلم - أرجح؛ فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة؛ إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فإنه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتي هي على الجملة كقوله: (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن تلك عشرة كاملة).

خلق السموات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأبىس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينيهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع^(١)، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. ويجوز أن يكون تخيلاً وبينى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: اتيا شتتا ذلك أو أبيتما، فقلتا: أتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير^(٢) أثر قدرته في المقدورات لا غير؛ من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الودت: اسأل من يدقني، فلم يتركني ورائي^(٣) الحجر الذي ورائي. فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمتها في الأمر بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: اتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: اتيا يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، واتيا يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضياً، وجاء مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير: من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض. وتنصره قراءة من قرأ: «أتيا» وآتينا: من المؤاتاة وهي الموافقة: أي: لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها. قلنا: وافقنا وساعدنا. ويحتمل وافقاً أمري ومشيئتي ولا تمتنعا. فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل اللزوم وتأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سموات وأرضون. قلت: لما

(١) قوله: «فعل الأمر المطاع» لعله: أمر الأمر. (ع).

(٢) قوله: «تصوير أثر قدرته» لعله: تأثير. (ع).

(٣) قال محمود: «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع، فهذا وجه. وأما أن يكون تخيلاً فيبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والأرض فأجابته، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط للوتد لم تشقني؟ قال الودت: اسأل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى، فإن معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحاً والعراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة؛ لما فيها من إيهام وسوء أدب، والله أعلم.

جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: طائعين، في موضع: طائعات. نحو قوله: (ساجدين)^(١). ﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: ﴿طَائِعِينَ﴾ ونحوه: ﴿أَعْمَارًا تَحِلُّ حَاوِيًا﴾ [الحاقة: ٧] ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات، والفرق بين النصيين أن أحدهما على الحال، والثاني: على التمييز، قيل: خلق الله السموات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان^(٢). فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أوقاتهما في يومين

(١) قال محمود: فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمتها في الأمر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال: (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى: اثنتا على ما ينبغي من الشكل: اثني يا أرض مدحوة وقرارا ومهاداً، واثني يا سماء سقفاً مقيمة. ثم قال: فإن قلت ما معنى طوعاً أو كرهاً، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال: فإن قلت: هلا قيل طائعتين، على اللفظ. وطائعات، على المعنى: لأنها سموات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره. قيل: طائعين في موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين» قال أحمد: لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين: أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة، وهذا هو السؤال الذي أورده. الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره، ولهذا نظره بقوله: (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء. فأما السؤال الآخر فلا؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف؛ فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر: وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنث، فيقال أولاً: لم ذكرها؟ وثانياً: لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء، ليتحقق نسبة السؤال والجواب؟ والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأملأ مثلاً وما في معناه من المذكر، ثم يغلب المذكر على المؤنث، ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً.

(٢) قال محمود: «قيل: إن الله تعالى خلق السموات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة، وخلق آدم في تمامه اليوم، وفيه تقوم القيامة، ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال: في يومين، في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان»، قال أحمد: كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر، وهذا لا يتم له منه غرض، فإن للقاتل أن يقول: إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ، وبخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله، فتأمل.

كاملين . أو قيل : بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء؟ قلت : الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصة القرائح ومصاك الركب^(١)؛ لتمييز الفاضل من الناقص، والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات، ويتضاعف الثواب، ﴿أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك . أو شأنها وما يصلحها . ﴿وَحَفَظًا﴾ وحفظناها حفظاً، يعني من المسترقة بالثواب . ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى، كأنه قال : وخلقنا المصاييح زينة وحفظاً .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ ١٥٧/٢ ب بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيهم صاعقة، أي: عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . وقرئ: «صعقة» (مثل) صعقة عاد وثمود: وهي المرة من الصعق أو الصعق . يقال: صعقت الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً، وهو من باب: فعلته ففعل . ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان: ﴿لَأَيِّتُهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني لأتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة، وتقول: استدرت بفلان من كل جانب، فلم يكن لي فيه حيلة . وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاء وهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم . وقيل: معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم . فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاء وهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما ويجمع الرسل ممن جاء من بين أيديهم، أي: من قبلهم ومن يجيء من خلفهم، أي: من بعدهم؛ فكان الرسل جميعاً قد جاء وهم . وقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم . «أن» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بمعنى أي، أو مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه لا تعبدوا، أي: بأن الشأن والحديث قولنا لكم: لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف

(١) قوله: «من مغاصة القرائح ومصاك الركب» أي أمكنة الغوص على اللؤلؤ، وأمكنة اصطكاك الركب . (ع)

أي: ﴿لَوْ شَاءَ رَبَّنَا﴾ إرسال الرسل^(١) ﴿لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فإننا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِينَ يُرْسِلُ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي: أن أبا جهل قال في ملاٍ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ، فاتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلّنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت؛ فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ﴾ إلى قوله: ﴿صَاعِقَةً تِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فحفت أن ينزل بكم العذاب (١٣٦٣).

١٣٦٣ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، باب: «اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله =

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: تَبَيَّنْتُ القرآن وكلام العرب فلم أجد مفعول شاء الواقع بعد «لَوْ» إلا من جنس جوابها نحو: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي لو شاء جَمَعْتُمْ على الهدى لَجَمَعْتُمْ عليه، ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَاجًا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿ولو شاء الله ما عبدنا من دونه﴾ وقال [من الطويل]:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمَرَ بْنَ مَرْزُودٍ
وقال [من الزجر]:

وَالَّذِي لَوْ شَاءَ لَكُنْتُ صَخْرًا أَوْ جَبَلًا أَشْمَ مُشْمَخِرًا

قال: فعلى ما تقدم لا يكون المحذوف ما قدره الزمخشري، وإنما التقدير: لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم؛ وهذا أبلغ في الإقناع من إرسال البشر؛ إذ علقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو لم يشأ ذلك فكيف يشأ ذلك في البشر؟ قلت: وتقدير أبي القاسم أوقع معنى وأخلص من إيقاع الظاهر موقع المضمر؛ إذ بصير التقدير: لو شاء إنزال ملائكة لأنزل ملائكة. انتهى. الدر المصون.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْغُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم وهو القوة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده. فإن قلت: القوة هي الشدة والصلابة في البنية، وهي نقيضة الضعف. وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية^(١) وهي نقيضة العجز، والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة، فكيف صح قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ وإنما يصح إذا أريد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوة والشدة والصلابة في البنية، وحقيقتها: زيادة القدرة^(٢)، فكما صح أن يقال: الله أقدر منهم، جاز أن يقال:

= تعالى من الإعجاز...، وابن أبي شيبة (٣٣٠/٧ - ٣٣١)، كتاب المغازي، باب: «في أذى قريش للنبي ﷺ»... رقم (٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٩/٣ - ٣٥١)، رقم (٥١) - (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (٣٦٨/١ - ٣٧١)، في ذكر ما كان من أمر عتبة بن ربيعة، رقم (٢٨٣)، والحاكم (٢٥٣/٢)، كتاب التفسير، باب: ما أحسن محسن من مسلم ولا كافر إلا أثناه الله، والبيهقي في تفسيره (١١٠/٤)، كلهم من طريق جابر بن عبد الله، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/١٩٩، ٢٠٠)، باب: اعتراف القدماء بأعلام النبوة، رقم (٨٢٨٥)، والهيثمي في المجمع (٢٢/٦) - (٢٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٩/٣) للثعلبي ولابن مردويه في تفسيريهما، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وبقي رجاله ثقات. قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلًا، ووصله ابن أبي شيبة، وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال بن حرملة عن جابر مطولاً. انتهى.

(١) قوله: «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي: إنه يقدر لذاته، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «القوة: الشدة في البنية ونقيضها الضعف، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل، وهي نقيضة العجز، فإن وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها، فكيف صح قوله: (هو أشد منهم قوة)؟ ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة، والقوة زيادة في القدرة، فكما صح أن =

أقوى منهم، على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرُونَ عليه بازدياد قدرهم. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة، وهو معطوف^(١) على فاستكبروا، أي: كانوا كفرة فسقة. ١٥٨/٢ الصرصر: العاصفة التي تصرصر، أي: تصوت في هبوبها. وقيل: الباردة التي تحرق بشدة بردها، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر، أي: يجمع ويقبض. ﴿مِحْسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحساً: تقيض سعد سعداً، وهو نحس. وأما نحس، فأما مخفف نحس، أو صفة على فعل، كالضخم وشبهه. أو وصف بمصدر. وقرئ: «لتذيقهم» على أن الإذاقة للريح أو للأيام النحسات. وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب، كأنه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد: الفعل السيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشْرَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي: أبلغ من وصفهم به. ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الْعَذَابُ لَهِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾
 ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وقرئ: «ثمود» بالرفع والنصب منوناً وغير منون، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء. وقرئ بضم الثاء. ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشd. فإن قلت: أليس معنى هَدَيْتُهُ: حصلت فيه الهدى، والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى: تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح

يُقال: أقدر منهم، صح أن يقال: أقوى منهم، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرُونَ عليه بازدياد قدرتهم قال أحمد: فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين، فإن سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام، وجعل التفضيل من حيث إن الله تعالى قادر لذاته. أي: بلا قدرة، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرة، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل: زيد أعلم من عمرو، بإثبات صفة العلم للمفضول، وسلبها بالكلية عن الأفضل. وهل هذا إلا عنة وعمى في اتباع الهوى وعمه؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله، معلومة قبله وبعده، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها، فضلاً عن تجاوزها إلى غيره، وقدرة الله جلّت قدرته مؤثرة في المقدورات، موجودة أولاً وأبداً، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلا من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من الله المنة.

(١) قوله: «وهو معطوف على فاستكبروا» أي: قوله تعالى (وكانوا... إلخ). (ع).

علمهم ولم يُبق لهم عذراً ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها. ﴿صَعَفَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿أَلْوَنُ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغته، أو أبدله منه، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة^(١) بشهادة نبيها ﷺ. وكفى به شاهداً - إلا هذه الآية، لكفى بها حجة^(٢).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قرئ: «يحشر» على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرهما، ويحشر:

(١) قوله: «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم: جميع الحوادث - خيراً كانت أو شراً من أفعال العباد الاختيارية أو غيرها - فهي بقضاء الله تعالى وقدره، خلافاً للمعتزلة؛ حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره، ولا تأثير له فيها أصلاً. وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيد الحديث. فسروا الإضلال والهوى في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يخلق الضلال وخلق الاهتداء، خلافاً للمعتزلة: حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه، والهدى بالبيان، ونقل النسفي عن أبي منصور الماتريدي: أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان، كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم. وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة، ثم كفروا وعقروها اهـ (ع).

(٢) قال محمود: «فدللتناهم على طريقي الضلالة والرشد، ثم قال: فإن قلت: ليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدي، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح علمهم، ولم يبق لهم عذر ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها، ثم قال: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام - وكفى به شهيداً - إلا هذه الآية، لكفى بها حجة، قال أحمد: قد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، فإن القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة، الذين أدبانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك، ومنهبط في مهواة هذا الهلك، ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة: هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين، والإضلال: خلق الضلال في قلوب الكافرين، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعاً، نحو هذه الآية، فإن المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسره الزمخشري. وقد اتفق الفريقان: أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع موارد في الشرع، فأَي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ وأي دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره، ويذيقه وبال أمره؟

على البناء للفاعل، أي: يحشر الله عز وجل ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ الكفار من الأولين والآخرين ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته؛ فإن قلت: (ما) في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ ما هي؟ قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ مَا أَنْتُمْ بِيَوْمٍ﴾ [يونس: ٥١] أي: لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة^(١) بأن يخلق فيها كلاماً. وقيل: المراد بالجلود: الجوارح. وقيل: هي كناية عن الفروج، أراد بكل شيء: كل شيء، من الحيوان، كما أراد به في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كل شيء من المقدورات، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه - وإنما قالوا لهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاضمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على السنة جوارحهم.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢) ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٣)

والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك^(٢) الظن هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عيناً كالثة ورقياً مهيمناً؛ حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملاء، ولا يتبسط في سره مراقبة^(٣) من التشبه بهؤلاء الظانين.

(١) قوله: «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام وهو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور. وعند أهل الطور: هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله. (ع).

(٢) قوله: «وذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله. وذلكم. (ع).

(٣) قوله: «في سره مراقبة من التشبه» أي مخافة، كما أفاده الصحاح. (ع).

وقرى: «ولكن زعمتم» ﴿وَذَلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿طَنَكُمْ﴾ و ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ خبران، ويجوز أن يكون ﴿طَنَكُمْ﴾ بدلاً من ﴿وَذَلِكُمْ﴾ و ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ الخبر.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَقِصْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَانُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ وإن يسألوا العتبي وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزءاً مما هم فيه: لم يعتبروا ٢/ ١٥٨ ب: لم يعطوا العتبي ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عز وعلا: ﴿أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ: «وإن يستعتبوا» فما هم من المعتبين» أي: إن سألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي: لا سبيل لهم إلى ذلك. ﴿وَقِصْنَا لَهُمْ﴾ وقدرنا لهم، يعني لمشركي مكة: يقال: هذان ثوبان قيصان: إذا كانا متكافئين. والمقايضة: المعاوضة. ﴿قُرْآنَهُ﴾ أخذنا^(١) من الشياطين جمع قرين، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْءُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرآن من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم^(٢) ومنعهم التوفيق؛ لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين^(٣). والدليل عليه ﴿وَمَنْ يَشْءُ﴾ نقيض. ﴿أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها. أو ما بين

(١) قوله: «قرناء أخذنا» أي أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «قلت: معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يفدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير، فلا داعي إلى هذا التكلف. قال تعالى: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) إلخ. (ع).

(٣) قال محمود: «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين. والدليل عليه قوله تعالى: (ومن يشء عن ذكر الرحمن... الآية) قال أحمد: جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة: أن الأمر على ظاهره، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه، ويأمر بما لا يريد حصوله، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها، وإنما تأولها الرمخسري لاتباعها هواه الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهى عما يريد. وإن وقع النهي عنه فعلى خلاف الإرادة - تعالى الله عن ذلك وبه نستعيد من جعل القرآن تبعاً للهوى، وحينئذ فنقول: لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبينا عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية، لكفى بها؛ فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه.

أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات، وما خلفهم: من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب ﴿فِي أَمْرٍ﴾ جملة أمم. ومثل في هذه ما في قوله [من المنسرح]:

إِنَّ تَكَّ عَنْ أَحْسَنِ الصُّنَيْعَةِ مَا فُوكَا فَنِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا^(١)

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد. فإن قلت: ﴿فِي أَمْرٍ﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْمَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ أَلَّاهُمُ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارٌ أَلْخَلَدُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

قريء: «والغوا فيه» بفتح الغين وضمها. ويقال: لغى يلغي، ولغا يلغو: واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا ورفث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا له إذا قريء، وتشاغلو عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهديان والزمل^(٢)، وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على الفارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاعنين والأميرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينظروا تحت ذكرهم. وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بدر. و﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون، حتى تستقيم هذه الإشارة. و﴿النَّارِ﴾ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدأ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارٌ أَلْخَلَدُ﴾؟ قلت: معناه أن النار

(١) لعروة بن أذينة، يقول: إن تك مأفوكاً - أي: مصروفاً ومنقلباً عن أحسن العطاء - فلا عجب، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ومنه: المؤتفكات، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط، وتقول العرب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، يعنون: الرياح المختلفة المهاب. ينظر: ديوانه ص ٣٤٣، ولسان العرب: (أفك) (وفيه «عمرو بن أذينة» وهذا تصحيف)، وأساس البلاغة (أفك)، وتاج العروس (أفك)، ومقاييس اللغة: ١/١١٨، ومجمل اللغة: ١/١٩٨، والمخصص: ٤٥/٣، ١٠٢/١٢.

(٢) قوله: «والزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت: والأزمولة - بالضم -: المصوت من الوعول وغيرها. (ع).

في نفسها دار الخلد، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وتقول: لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعنى الدار بعينها ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الْأَذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ أي: الشياطين اللذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ لأن الشيطان على ضربين: جنى وإنسى. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۗ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿٦﴾ [الناس: ٥-٦] وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق (١٣٦٤). وقرئ: «أرنا» بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ: فخذ. وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى: بصريه. وإذا قلته بالسكون، فهو استعطاء، معناه: أعطني ثوبك، ونظيره: اشتها الإيتاء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا سَتَزَلُّ عَلَيْهِمُ أَلْمَاتُكُمْ أَلَّا يَخَافُوا وَلَا يَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿مَنْ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿تُرَاةً مِنْ عَفْوَِرٍ رَحِيمٍ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه؛ لأن الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشده. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا وروغان الثعالب. وعن

١٣٦٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٥/١١)، رقم (٣٠٥١١)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٨٦/٢)، والحاكم (١١٠/٢)، كتاب التفسير، باب: إن أول ما يتكلم يوم القيامة من آدمي فخذ وكفه، جميعهم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعزه السيوطي في الدر المنثور (٦٨١/٥) للفرغاني وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل. وعن علي رضي الله عنه: أدوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به. قال: «قل ربّي الله، ثم استقم» قال: فقلت: ما أخوف ١٥٩/٢ ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال: «هذا» (١٣٦٥) ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى. وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم؛ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ «أن» بمعنى أي. أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: لا تخافوا، أي: يقولون: لا تخافوا، والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه؛ من فوات نافع أو حصول ضار. والمعنى: أن الله كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً. وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحبائهم في الدارين. ﴿تَدْعُونَ﴾ تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها: ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في

١٣٦٥ - أخرجه مسلم (٢٢٢/١) الأبي كتاب الإيمان: باب: «جامع أوصاف الإسلام» رقم (٣٨/٦٢)، والترمذي (٦٠٧/٤) كتاب الزهد: باب «ما جاء في حفظ اللسان» رقم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٢/١٣١٤) كتاب الفتن: باب «كف اللسان في الفتنة» رقم (٣٩٧٢)، والدارمي (٢/٢٩٨)، كتاب الرقاق: باب «في حفظ اللسان»، وابن حبان (٨/٢٣٧ الموارد)، رقم (٢٥٤٣)، وهم الحاكم وأخرجه (٤/٣١٣)، وأخرجه الطبراني (٧/٧٨)، رقم (٦٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٦٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد»، (٩/٢٣٤)، رقم (٤٨٧٧).

وأخرجه ابن حبان (٣/٢٢١، ٢٢٢) كتاب الرقائق: باب «الأدعية» ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يقربه إليه بفضل الله علينا بذلك» رقم (٩٤٢)، بلفظ «قل آمنت بالله... الحديث»، وأحمد (٣/٤١٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: «وهو وهم من الحاكم فقد أخرجه مسلم كما بينا في أول التخريج».

والحديث ذكره الهيثمي في «الموارد» لزيادة وقعت عنده وهي: قلت يا رسول الله ما أخوف ما يخاف عليّ؟ قال: هذا وأشار إلى لسانه. وقال الحافظ: أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان بتمامه، وأصله في مسلم. انتهى.

المؤذنين (١٣٦٦)، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير داعياً إليه؛ وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله^(١). وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول: هذا قول أبي حنيفة، تريد مذهبه.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾

يعني: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنتان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة: أن تعفو عنه، والتي هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال: وما يلقي هذه الخليفة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير. فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت: هو على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ادفع بالتي هي أحسن. وقيل: (لا) مزيدة. والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة. فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، قلت: أجل، ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة؛ ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة (١٣٦٧)، وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن رحمه الله: والله ما عظم حظ دون الجنة، وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله ﷺ، فصار ولياً مصافياً.

١٣٦٦ - أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٤/١)، كتاب الآذان والإقامة، باب: في فضل المؤذن وثوابه، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٦٨٤/٥) لابن المنذر ولابن مردويه.
١٣٦٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (١١١/١١)، رقم (٣٠٥٤٤) من طريق علي عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٨٥/٥) لابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفسيرهما.

(١) قوله: «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك، فلا وجه للتخصيص. (ع).

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

النزغ والنسغ بمعنى، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جد جدّه. أو أريد: وإما ينزغتك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على شأنك ولا تطعه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنتى أو الإناث. يقال: الأفلام بريتها وبريتها: أو لما قال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ كن في معنى الآيات، فقيل: خلقهنّ. فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها. وعند أبي حنيفة رحمه الله: يسأمون؛ لأنها تمام المعنى، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الوساطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ١٥٩/٢ ب، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين. ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ ولم يمثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن الزلفي والمكانة والكرامة. وقرئ: «لا يسأمون» بكسر الباء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي آخَاها لَمُحِي الْمَوْقِعِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

الخشوع: التذلل والتصاغر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ؛ إذا أخصبت وتزخرقت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأظمار الرثة^(١). وقرئ «وربات» أي

(١) قوله: «في الأظمار الرثة» في الصحاح «الظمر» الثوب الخرق، والجمع: الأظمار. (ع).

ارتفعت؛ لأن النبت إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا أَمَّا بَلَّغْنَا فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُم بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ «يلحدون ويلحدون» على اللغتين. وقوله: ﴿لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؟ قلت: هو بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠] والذكر: القرآن؛ لأنهم لكفروهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ مثل كان الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوله المبطلون؟ قلت: بلى، ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد آقاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والغرض: تخويف العصاة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٣﴾﴾

كانوا لتعتتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم، فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت. وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت ولخصت بلسان نطقه.

﴿عَجْمٌ وَعَرَبٌ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي، وقرئ «أعجمي» والأعجمي: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمة العجم. وفي قراءة الحسن (أعجمي) بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي، والمرسل أو المرسل إليه عربي. والمعنى: أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأن القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلاً، فجعل بعضها بياناً للعجم، وبعضها بياناً للعرب. فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب بقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي؛ وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة، فوجب أن يجزء لما سبق إليه من الغرض، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر. ألا تراك تقول - وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة -: اللباس طويل واللباس قصير. ولو قلت: واللباس قصيرة، جئت بما هو لكنة وفضول قول؛ لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللباس وأنوثته، إنما وقع في غرض وراءهما. ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿هُدًى وَشَفَاءً﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لَمَّا فِي الصُّدُورِ﴾ من الظن والشك. فإن قلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ منقطع ١٦٠/٢ عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر؛ إلا أن فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر^(١) على حذف المتبداً. أو في آذانهم منه وقر وهو عليهم عمى. وقرئ: «وهو عليهم عم» «وعمى» كقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ﴾ [هود: ٢٨] ﴿يَتَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يراعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطئة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِبِّينَ ﴿١٥﴾

(١) أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين، أحدهما: أن تكون الواو لعطف الذين على الذين، وقر على هدى وشفاء، ويكون من العطف على عاملين. قال: وإما أن يكون (والذين) مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، على حذف المتبداً. أو في آذانهم منه وقر. اهـ. قال أحمد: أي وتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المتبداً.

﴿ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل. والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لفضى بينهم في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ يَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر: ٤٦] ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤٦)

﴿ نَفْسِي ﴾ نفسه نفع. ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ نفسه ضرر. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ ﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ (٤٧) ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ مِنَّيْهِمْ مِّنْ حِجَابٍ ﴾ (٤٨)

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو لا يعلمها إلا الله. وقرئ: «من ثمرات من أكمامهن»^(١). والكـم - بكسر الكاف - وعاء الثمرة، كجف الطلعة، أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضح إلا وهو عالم به. يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج^(٢) والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح وغير ذلك. ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءِى ﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم، وبيانه في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢] وفيه تهكم وتقريع. ﴿ ءَآذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي ما منا أحد اليوم - وقد أبصرنا وسمعنا - يشهد بأنهم شركاؤك، أي: ما منا إلا من هو موحد لك، أو ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء، أي: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم، فكانهم ضلوا عنهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾ وأيقنوا. والمحيص: المهرب. فإن قلت: ﴿ ءَآذَنَّاكَ ﴾ إخبار بإيدان كان منهم، فإذا قد آذنا فلم سئلوا؟ قلت: يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائي)؟ إعادة للتوبيخ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكي. ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا

(١) قوله: «وقرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة: من ثمرة من أكمامها. والذي في النسفي: من ثمرات من أكمامها. ومن ثمرة من أكمامها. وأما: من ثمرات من أكمامهن. فهي المزيدة هنا، فحرر. (ع).

(٢) قوله: «من الخداج» أي: النقصان، كما في الصحاح. (ع).

نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيدان ولا يكون إخباراً بإيدان قد كان، كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

﴿لَا يَسْتَعْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتُوسُّ قَنُوطًا﴾ (٤٩) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥١)

﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فَيَتُوسُّ قَنُوطًا﴾ بولغ فيه من طريقتين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَلِمَاتُ الْكُفُورُ﴾ [يوسف: ٨٧] وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال: ﴿هَذَا لِي﴾ أي هذا حق وصل إلي؛ لأنني استرجيته بما عندي من خير وفضل وأعمال بر. أو هذا لي لا يزول عني، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُدُّ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا طَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] يريد: وما أظنها تكون، فإن كانت على طريق التوهم ﴿إِنَّ لِي﴾ عند الله الحالة الحسنی من الكرامة والنعمة، قائماً أمر الآخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمنتان، يقول في الدنيا: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾. ويقول في الآخرة: ﴿يَلَيِّنِي كُتُّ رَبِّي﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَيْكَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْتَهُ هَبَاءً مَنثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رياء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محققون بذلك. ١٦٠/٢/ب

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِحَيْنِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١)

هذا أيضاً ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة، وكأنه لم يلق بؤساً قط فنسى المنعم وأعرض عن شكره ﴿وَنَسَىٰ بِحَيْنِيهِ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر

وتعظم . وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهاال والتضرع . وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ بشدة العذاب . وقرئ: «ونأى بجانبه» بإمالة الألف وكسر النون للتباع . وناء على القلب، كما قالوا: راء في رأى . فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا قَرَأْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله [من الوافر]:

..... وَتَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّبَيْبِ.....^(١)

يريد: ونفيت عنه الذئب . ومنه: ﴿وَلَمَّا حَافَ مَقَامَ رَبِّي﴾ [الرحمن: ٤٦] ومنه قول الكتاب: حضرت فلان ومجلسه، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبر ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كل مذهب، وعصفت به الخيلاء؛ وأن يراد بجانبه: عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، وتولى بركنه .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِّنْ ضَلٍّ مِّمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ

بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾

(١) وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين .

للشماخ: وأروى، اسم محبوبته . واللجين - بفتح اللام وكسر الجيم -: ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق؛ لأنه يضربه الهوى أو الراعي، فيسقط من الشجر . وذعرت - بفتحيتين، أي: أخفت فيه القطا، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء . ومقام الذئب: إقامته أو محلها، وعبر به كناية عن ذاته، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلاً . والرجل اللعين: هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام، يقول: ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي، عسى أن تجيء عنده فأراها . ويروى: لوصل أروى، فلعله كان موعداً بينهما . وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده، فيصلح موعداً للوصل . وذعرت - إلى آخره: كناية عن وروده ليلاً، وكالرجل اللعين: حال من ضمير الشاعر، فيفيد أنه سبق القطا والذئب وقعد هناك، أو حال من الذئب، أي: على هيئة مفزعة . وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته .

ينظر ديوانه ص ٣٢١، وجمهرة اللغة ص ٩٤٩، وخرزانة الأدب . ٣٤٧/٤، ٣٤٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ١٣/٣، ولسان العرب (لعن)، والمعاني الكبير: ١٩٤/١، والمصنف ١/١٠٩، ومجالس ثعلب: ٥٤٣/٢، والمحتسب ١/٣٢٧ .

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلت من اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر متحمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به. فأخبروني من أضل منكم وأنتم أبعدم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكم أنفسكم؟ وقوله تعالى: ﴿مِثْنٌ هُوَ فِي شِقَاقِ بَيْبِئَةٍ﴾ موضوع موضع منكم، بياناً لحالهم وصفتهم.

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب^(١) خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبارة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويانهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعهود خازقة للعادات؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها، والاستقراء يطلعك - في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهل وأيامهم - على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور؛ وأن للباطل ربحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل. ﴿بَرِّبِكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. و﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره. أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيروته ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهمين يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة. وقرئ: «في مرية» بالضم

(١) قوله: «وفي باحة العرب» أي: ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع).

وهي الشك. ﴿مُحِيطًا﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات» (١٣٦٨).